خسرو وشيرين

في التصوير الإسلامي

للدكتور محمد مصطفى

— ٢ —

استطاع القائد بهرام جوبين أن يوقع بين الملك هرمزد وولده الأمير خسرو پرويز ويغيّر رأيه عليه، فاستحضر هرمزد صاحب سره وسأله أن يدبر في الاحتيال لاغتيال خسرو، فخدعوا بعض خواصه بمال وواضعوه على أن يسقيه سمًّا يقتله. ولمّا علم خسرو بذلك أشار عليه معلمه بُزرجميد الحكيم، فركب تحت جناح الليل وخرج من المدائن يسوق طرداً وركضاً في طريق آذربيجان[1] — أو كما يقول الشاعر نظامي الكنجوي — في الطريق إلى أرمينية[2]. وكان أن التقى بحبيبته شيرين وهي تستحم في بركة الماء دون أن يعرف أحدهما الآخر، وافترقا وقلب كل منهما يحدثه أنه رأى حبيبه، فواصل هو طريقه إلى أرمينية ليحظى برؤيتها، وتابعت هي طريقها إلى المدائن لتبحث عنه... وكان خسرو — قبل أن يغادر قصره في المدائن حيث كان في انتظار نتيجة مساعي سفيره شابور — قد أخبر رؤساء خدمه وجواريه باحتمال مجيء سيدة جميلة، ذات مقام رفيع، ونزولها ضيفاً عليه، وأمرهم بحسن استقبالها بما يليق بمقامها من الاحترام والإجلال، وشدد عليهم في إجابة جميع رغباتها

(١) أنظر الشاهنامه ج ٢ ص ١٩٥، الطبري ج ٢ ص ١٣٦، نولدكه ص ٢٧٣ والحاشية.

(٢) كانت أرمينية إذ ذاك — كما كانت آذربيجان — من أملاك إيران، وكانت موضع مساومة بين موريس أمبراطور الروم وخسرو پرويز، تظير مساعدة موريس لخسرو ضد القائد بهرام جوبين الذي اغتصب عرش إيران. انظر المراجع السابقة وانظر أيضاً:

Laurence Binyon, The Poems of Nizami, p. 18

و F. I. W. Gibb, A History of Ottoman Poetry, I, p. 317

وصلت شيرين المدائن، وتوجهت إلى قصر خسرو، كما أوصاها شابور، حيث أظهرت الخاتم الذي أرسله خسرو إليها، فقوبلت بالترحاب، ونزلت هنالك معززة مكرمة مطاعة من الجميع؛ ولكنها لما علمت بغياب خسرو عن القصر، شعرت بالسأم يدب حولها فيه، ورغبت في السكنى بعيداً عنه، فأجيبت إلى هذه الرغبة، وبنى لها قصر عظيم بين الهضاب المرتفعة، لعلها تجد فيه من ضروب اللهو والتسلية ما يجلب السرور إلى قلبها، وعرف القصر باسمها، فقيل «قصر شيرين»

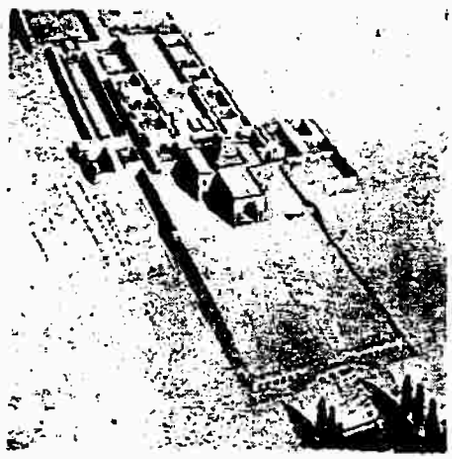

(شكل ١)

وفي (شكل ١) تخطيط[1] لقصر شيرين فيه محاولة لإرجاعه إلى حالته الأصلية ترى فيه ما كان عليه القصر من العظمة واتساع الأرجاء. وتوجد آثار هذا القصر بين الهضاب في إيران على بعد حوالي عشرين ميلاً من الحدود العراقية في الطريق إلى كرمانشاه[2]. ويقول ابن الفقيه[3] إن «السبب في بناء قصر شيرين أن الملك أمر أن يبنى له باغ يكون فرسخين في فرسخين وأن يصيّر فيه من كل صيد حتى يتناسل، ووكل به ألف رجل

(١) نقلا عن: Oscar Reuter, Sasanian Architecture, in, S. P. A., I, p. 542.

(٢) انظر: F. Sarre, Die Kunst des alten Persien, S. 38 و G. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, pp. 44—50, pls. 51—73.

(٣) في كتاب البلدان — طبعة ليدن — ص ١٠٨ — ١٠٩

وأجرى على كل رجل منهم خمسة أرغفة ورطلين لحماً ودورق خمر ، فأقاموا فيه سبع سنين حتى فرغوا منه . . . وسماه باغ نخجيران أي باغ الصيد » ويروى ابن الفقيه عن قصر شيرين أبياتاً منها :

ياذا الذى غره الدنيا وبهجتها وحسن زهرة أنوار البساتين
والدور تخربها طوراً وتعمرها بالطين والجص والآجر والطين
أما رأيت صروف الدهر ما صنعت بالقصر قصر أبرويز وشيرين
قد صار قفراً خلاء ما به أحد إلا النعام مع الوحشية العين
سبحان من خلق الدنيا ودبرها وأنشأ الخلق من ماء ومن طين

وصل خسرو إلى أرمينية ، ونزل ضيفاً على ملكتها مهين بانو ، فأخبرته عن اختفاء ابنة أخيها شيرين ، ودعته لأن يمكث فى أرمينيا طول مدة الشتاء ، تقبل الدعوة . وجاءه شابور بعد ذلك بأيام قلائل ، وأخبره بكل ما فعل . فأبلغ خسرو الملكة بوصوله وبما جاء به من الأخبار عن شيرين ، واتفقا أن يرجع إلى المدائن ليعود بها إلى أرمينية . وهكذا أمرت الملكة مهين بانو أن يركب شابور على الفرس « جُلْجون[1] » وهو فرس آخر فى حوزتها ، كان يضارع الفرس « شَبْديز » فى شهرته . ووصل شابور إلى المدائن حيث وجد شيرين قد تركتها إلى قصرها بين الهضاب ، فتبعها إلى هناك وأبلغها رغبة عمتها ، وأقنعها بالعودة إلى أرمينية حيث ينتظرها خسرو ، فركبت شيرين الفرس « جُلْجون » — إذ كانت قد تركت شَبْديز فى المدائن — ورحلت إلى أرمينية فى صحبة شابور

وفى ذات الوقت جاء رسول من المدائن وأخبر خسرو بثورة القائد بهرام جوبين ، وأن الثوار قد قبضوا على أبيه الملك هرمزد وسملوا عينيه وأرغموه أن ينزل له عن العرش ، بعد أن أعلن بهرام جوبين طاعته لخسرو إذا هو تولى الملك . فأسرع خسرو إلى المدائن ، حيث توج ملكاً على إيران . وهناك علم أن شيرين قد رحلت مع شابور إلى أرمينية ، وأنها قد تركت له الفرس شبديز هدية منها . ولكن سرعان ما ظهرت نيات القائد بهرام جوبين الحقيقية ، وأنه قصد بهذه الثورة أن ينتصب عرش إيران لنفسه . وهكذا اضطر خسرو — وقد تبين قوة خصمه — أن يعمل بنصيحة معلمه بزرجميد الحكيم ، ويغادر البلاد بعض الوقت ، إلى أن يبدأ نجمه فى الارتفاع ، فيتجمع الفرص لاسترداد حقوقه .

وأخيراً تقابل الحبيبان ، إذ جاء خسرو إلى أرمينية بعد وصول شيرين وشابور بوقت قصير . وصادف مجيئه خروج شيرين وصويحباتها للصيد ، فقابلته فى الطريق وعرف كل منهما الآخر ، وكاد يطير سروراً بهذا اللقاء ، وصحبته إلى عمتها مهين بانو ، فاستقبلتهما بما جبلت عليه من لطف وطيبة قلب . وانتهزت هذه العمة الطيبة فرصة انفرادها مرة بابنة أخيها شيرين ، وتوسلت إليها أن تحتفظ بوقارها فى جميع المناسبات ، وأن تناضل فى سبيل الدفاع عن شرفها ، والمحافظة على طهرها وعفافها ، فوعدتها شيرين بذلك . فسمحت لها العمة بالخروج مع خسرو فى رحلة إلى الريف ، حيث قضيا شهراً وهما يستمتعان بالصيد وضروب التسلية الأخرى .

وفى (شكل ٢) خسرو وشيرين وهما يدخلان أحد القصور فى أرمينية عند رجوعهما من الصيد ، وقد وقف فى استقبالهما بعض أكابر الدولة من أفراد الحاشية ومعهم الخدم والجوارى . وهذه الصورة[1] فى مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر خسرو الدهلوى ، كتبه محمد بن الأزهر فى هرات سنة ٨٩٠ هجرية

(١) جلجون أى ذو اللون الوردي . ويروى أن جلجون وشبديز هما أصل فرس أصيلة أرمينية ، وأن أباها تمثال لفحل جميل منحوت فى صخرة سوداء موجودة فى كهف بجبال أرمينية أنظر :
F. I. W. Olsh; I. p. 318 n. 2.

(١) منقولة عن : Martin, Les miniatures de Behzad dans un manuscrit persan daté 1485, pl. 12
انظر أيضا : Martin, Miniature Painting, II, pl. 77 و Glück und Diez Kunst des Islam, p. 510 و Binyon — Wilkinson — Gray, p. 95, no. 78 c, pl. LXII B

(١٤٨٥ م) . وكان مؤرخو الفن الإسلامي ينسبون الصور التوضيحية التي في هذا المخطوط للمصور بهزاد ، وذلك لما امتازت به من الدقة في رسم المباني والأشخاص . والظاهر أن بهزاد كان له في ذلك الوقت بمدينة هرات تلاميذ صوروا هذه الصور ، وأسبغ عليها الكثير من روح أستاذهم[1] . وهذا المخطوط محفوظ في مجموعة شستر بيتي بلندن

* * *

قضى الحبيبان شهراً وهما يتسليان بالصيد ولعب الكرة وغير ذلك من أنواع التسلية ، إلى أن دعا خسرو شيرين لمأدبة أقامها لها في مضرب خيامه . وكانت مأدبة فاخرة استمعا فيها لأغاني « بارُبد » مطرب خسرو و « نيكيسا » مطربة شيرين ، ومن بين شفاه هذين المطربين كان فيض الهوى يتردد ، وكانا يتجاوبان بما يكنه قلب كل من العاشقين للآخر

(شكل ٢)

وفي (شكل ٣) جلس خسرو على سجادة في منظرة بحديقة غناء ، يستمع لموسيقى مطربه باربد الجالس أمامه إلى جوار الفسقية وبين يديه « عود » كبير يحرك أوتاره ، بينما جلس بعض أكابر الدولة يستمعون لباربد ويتسامرون وهم يتناولون الطعام والشراب

(١) انظر : S. P. A., III, p. 1863

ووقف في خدمتهم الغلمان والسقاة والخدم ، وقد ظهر على وجه كل منهم مبلغ اهتمامه بما يعمل . ونلاحظ في هذه الصورة الدقة

(شكل ٣)

في تصوير المباني والأشجار والزهور ، وفي رسم الحيوانات على الحائط خلف خسرو ، وكذا صورة التنينين في أعلى القبة إلى جانبيها . وهذه الصورة[1] من تصوير « ميرزا علي » . وترى إمضاؤه في أسفل الصورة إلى اليسار . وهي في مخطوط نظامي المؤرخ بين سنتي ٩٤٦ و ٩٥٠ هجرية (١٥٣٩ — ٤٣ م) المكتوب للشاه طهماسب

واشتهر بارُبد[2] بجمال الصوت وحسن التوقيع والمقدرة على وضع القطع الموسيقية وتأليف الألحان ، وصارت الحانه حجة أساتذة الموسيقى ، وكان بارعاً في الضرب على العود . ويروى أبو الفرج الأصفهاني[3] أنه « ضرب يوماً بين يدي كسرى فأحسن

(١) منقولة عن : Laurence Binyon. pl. XI
انظر أيضا : Martin, II, pl. 137 و S. P. A., III, p. 1879

(٢) يذكر باربد في الكتب العربية بأسماء متقاربة ، فتارة يسميه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني « الفهلبذ » ويسميه ياقوت الحموي في معجم البلدان « البهلبذ » ، وهو بذلك الاسم في قصيدة البحتري التي وصف بها إيوان كسرى ، أنظر كتاب البلدان لابن الفقيه — طبعة ليدن — ص ١٥٨ في الحاشية ، والشاهنامة ج ٢ ص ٢٤١ في الحاشية

(٣) في كتاب الأغاني — طبعة دار الكتب المصرية ج ٥ ص ٣٨١

فحسده رجل من حذّاق أهل صنعته ، فرقبه حتى قام لبعض شأنه ثم خالفه إلى عوده فشوّش بعض أوتاره ، فرجع [illegible] وهو لا يدري ، والملوك لا تصلح في مجالسها العيدان ، فلم يزل يضرب بذلك العود الفاسد إلى أن فرغ ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصة ، فامتحن العود فعرف ما فيه »

وكان بَارْبُد محبباً لخسرو برويز ومقرباً إليه ، فكان يقصده أصحاب الأمور لعرضها على خسرو إذا خافوا أن يبطش بهم . ويروى ياقوت الحموي[1] أنه لما عرف خسرو برويز بمرض الفرس شَبديز — وكان عزيزاً عليه — قال: «لئن أخبرني أحد بموته لأقتلنه . فلما مات شبديز خاف صاحب خيله أن يسأل عنه فلا يجد بداً من إخباره بموته فيقتله . فجاء إلى البَهلَبَذ مغنيه ، ولم يكن فيما تقدم من الأزمان ولا ما تأخر أحذق منه بالضرب بالعود والغناء . قالوا كان لأبرويز ثلاث خصائص لم تكن لأحد من قبله : فرسه شبديز ، وسريته شيرين ، ومغنيه بهلبذ، وقال اعلم أن شبديز قد نفق ومات وقد عرفت ما أوعد به الملك من أخبره بموته فاحتل لي حيلة . فلما حضر بين يدي الملك غناه غناء روى فيه القصة إلى أن فطن الملك وقال له : ويحك ! مات شبديز . فقال : الملك يقوله . فقال زه ! ما أحسن ما تخلّصت وخلصت غيرك ! ... » وقد ذكر هذه القصة خالد الفياض في شعر قاله وهو :

والملك كسرى شهنشاه تقنّصه ... سَهم بريش جناح الموت مقطوب
إذ كان لذّته شبديز يركبه ... وغُنج شيرين والديباج والطيب
بالنار آلى يميناً شدّ ما غلظت ... أن من بدا فقد الشبديز مصلوب
حتى إذا أصبح الشبديز منجدلاً ... وكان ما مثله في الناس مركوب
ناحت عليه من الأوتار أربعة ... بالفارسية نوحاً فيه تطريب
ورنّم البَهلبَذُ الأوتار فانتحبت ... من سحر راحته اليسرى شآبيب
فقال مات فقالوا أنت فُهْت به ... فأصبح الحنث عنه وهو مجتنب
لولا البَهلبَذ والأوتار تندبه ... لم يستطع نبي شبديز المرازيب

(له بقية)

محمد عبد الغني حسن
أمين مساعد دار الآثار العربية

(١) في كتاب معجم البلدان — طبعة ليبزج — ج ٣ ص ٢٥١–٢٥٢

رسَـــلات ...

« هذا عنوان نرجو أن نكتب تحته في الحين بعد الحين كلمات موجزة في معان شتى ، وإن في الإيجاز لبلاغا لقوم يعقلون ! »

الضمير

سر غريب ، وروح عجيب ، أودعه الله الإنسان فجعل منه قوة مسيطرة عليه ، متصرفة فيه ، لا يملك لها دفعاً ، ولا يستطيع منها تخلصاً ، ولا يجد من دونها موئلاً !

آمنت بك يا رب ! خلقت الإنسان ضعيفاً ، وركبت فيه نوازع الشر والخير ، ثم قلت له بلسان قدرتك : اعمل ما شئت فقد جعلت عليك رقيباً لن تغيب عنه ولن يغيب عنك ، وليس إلى مصانعته أو مخادعته من سبيل !

آمنت بك يا رب ! هم ينكرون حسابك في الآخرة وأنت تحاسبهم في الدنيا ، وهم يتساءلون : كيف يكون لابن آدم معقبات من بين يديه ومن خلفه ؟ وأنت جعلت له معقباً في قرارة نفسه

ولكن يا رب ، سؤالَ غير معترض عليك ، ولا معقبٍ على حكمك : هل جعلت هذا الضمير أداة عذاب ، وكتبت به على فريق من الناس أن يظلوا منه في حرب عوان مع هذه الدنيا الملتوية ؟ إن الباطل ، يا رب ، قد استعلى على الحق ، وطغى على الخلق ؛ وإن الرجل ليصدع بكلمة الصدق فيُتخذ سخريا ، ويكون أضحوكة الضاحكين ، وأندورة المتندّرين ، وإن الكاذب الخادع ليلتوي ويتخابث فيشق طريقه بين الناس في أمن وطمأنينة وسلام !

لقد أصبح الباطل مُعمًّا في الناس مُخوِلا ، وأصبح الحق بتيا لطيما ! فماذا يفعل امرؤ ذو ضمير يدعوه إلى الإخلاص في عمله والوفاء فيه ، وهو يرى البيئة الفاسدة عدوّاً له ، وحرباً عليه ؟ ماذا يفعل إذا استحثه ضميره على السير في طريق الخير قُدُما وهو يرى القافلة كلها تسير في غير الطريق ؟ أيبطل مع المبطلين ، ويفسد مع المفسدين ؟ وأنّى له ذلك وهو امرؤ ذو ضمير ؟ أم يصادم ويقاوم ويثور ويغضب ويجادل ويناضل ؟ وكيف يأمن مع ذلك على نفسه وخلقه ؟ ومتى يذوق طعم الراحة ؟

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ! »

محمد محمد المرسي